

إضاءات نقدية (فصلية محكمة)

السنة الثانية - العدد الثامن - شتاء ١٣٩١ش / كانون الأول ٢٠١٢م

ص ١٦٣ - ١٧٩

التناسق في قصيدة «قل للديار» لجرير مع قصيدة «خف القطين» للأخطل

على نظري*

يونس وليبي**

الملخص

تعددت الدراسات النقدية في الأدب المعاصر ونظرية التناسق من أبرزها. وهو مصطلح نقدي حديث وافد من الغرب إلى العالم العربي، وله أنواع متعددة ومنها: التناسق الأدبي وهو تداخل نصوص أدبية سابقة مع النص الأدبي اللاحق. وهذا النوع من التناسق يبرز بروزاً واضحاً جلياً في النقائض. وهذا البحث يحاول أن يعالج التناسق الأدبي في قصيدة "قل للديار" لجرير - وهي من النقائض - مع قصيدة "خف القطين" للأخطل. ويهدف إلى إظهار حوار القصيدتين وتعالقهما وتداخلهما عبر التناسق المضموني والشكلي. ونرى من خلال دراستنا أن التناسق قد برز في قصيدة جرير في نوعيه الشكلي والمضموني بروزاً واضحاً.

الكلمات الدلالية: التناسق الأدبي، التناسق المضموني، التناسق الشكلي، جرير،

الأخطل.

alinazary2002@gmail.com

*. جامعة لرستان، خرم آباد، إيران. (أستاذ مشارك).

** جامعة لرستان، خرم آباد، إيران. (طالب مرحلة الدكتوراه).

التنقيح والمراجعة اللغوية: د. هادي نظري منظم

تاريخ القبول: ١٣٩١/١٠/١٤هـ. ش

تاريخ الوصول: ١٣٩١/٣/١هـ. ش

المقدمة

النقائض فن شعري نشأ في العصر الجاهلي واستمر إلى العصر الأموي وبلغت ذروتها في ذلك العصر على أيدي الشعراء الثلاثة (الفرزدق، وجريير، والأخطل) بسبب الصراع العنيف بين الأحزاب السياسية وإيقاد نار العصبية بين القبائل، وهي: «أن يتجه شاعر إلى آخر بقصيدة هاجياً أو مفتخراً فيعمد الآخر إلى الردّ عليه هاجياً ومفتخراً ملترماً البحر والقافية والرّوى الذي اختاره الأول.» (الشّايب، ١٣٧١ق: ٣)

وإذا كان التناص بمعنى حوار النصوص وتداخلهما، على حسب ما جاء في تعريف النقائض، تقع النقائض في صلب التناص. لأن أصحاب النقائض كانوا يأخذون كثيراً من معاني الشعراء الأول ويغيرون توظيفها باستخدام بعضها لصالحهم وتقض بعضها وردّها إلى الشاعر الأول. وفي هذه المقالة نتطرّق إلى التناص الأدبي في النقائض؛ واخترنا للدراسة القصيدتين الشهيرتين من النقائض وهما قصيدة "قل للديار" لجريير وقصيدة "خفّ القطين" للأخطل. ويتناول بحثنا هذا في الابتداء نشأة التناص ومفهومه، وبعده يتطرّق إلى التناص المضموني ثمّ التناص الشكلى في قصيدة جريير. من حيث إنّ الأخطل هو البادئ وقصيدته أقدم من قصيدة جريير فإننا سنتخذ قصيدته أصلاً نقيس عليه نقيضة جريير في الأشكال والمضامين.

مع أن دراسات عديدة أجريت في ظاهرة التناص لكن أكثرها حول التناص القرآني أو الديني والقليل منها تطرّق إلى التناص الأدبي. ومع هذا الكثير من الدراسات في التناص الأدبي قد وقع في شعر التفعيلة دون الشعر العمودي خاصة النقائض. ومن هنا يمكننا القول إن دراستنا هذه تتصف بالجدة في مجاله.

وفي أهميتها نتذكر كلام رحاب الخطيب: تعد المقاربة التناصية إحدى الأدوات الحيوية والمنافذة الحية لدراسة النص الشعري. فهي مفتاح لقراءة النص وتحليله وتفكيكه وإعادة بنائه. (الخطيب، ٢٠٠٥م: ١٢)

نشأة التناص ومفهومه

وهناك إجماع نقدي على أنّ جوليا كريستيفا البلغارية التي تحمل الجنسية الفرنسية هي أول من وضع مصطلح (التناص lintertextualite) عام ١٩٦٦م منطلقة من

مفهوم الحوارية عند باختين الروسى، لكن بعض النقاد العرب يترجم المصطلح إلى التناصية وهم يضعون التناص في مقابلة كلمة (intertext) الفرنسية.

كريستيفا نفسها قد تخلّت عن مصطلح التناص في عام ١٩٨٥م، وآثرت عليه مصطلحاً آخر هو التنقلية، إذ تقول: إن هذا المصطلح التناصية الذى فهم غالباً بالمعنى المتبدل لنقد الينابيع في نصّ ما، يفضل عليه مصطلح التنقلية. (عزّام، ٢٠٠١م: ٢٩)

تعدّدت مفاهيم التناص ودلالاته وقدمت تعاريف كثيرة للتناص من زوايا مختلفة. والجدير بالذكر أنّ مفهوم التناص ليس جديداً في الدراسات البلاغية والنقدية العربية والغربية، فقد ورد تحت تسميات مختلفة كالاقتباس، والتضمن، والسرققات الشعرية، والتلميح، والإشارة... لكن مفهوم التناص احتواها وتجاوزها ووسع آفاقها. وقد تعددت تعريفات مصطلح التناص عند النقاد، والآآن نذكر عدة منها:

التناص عند كريستيفا هو ذلك (التقاطع داخل نص لتعبير مأخوذ من نصوص أخرى) وتقول التناصية هي أن يتشكل كل نص من قطعة موزاييك من الشواهد وكل نص هو امتصاص لنص آخر أو تحويل عنه. (المناصرة، ٢٠٠٦م: ١٣٩)

«التناص هو تعالق (الدخول في العلاقة) نصوص مع نص حدث بكيفيات مختلفة.» (مفتاح، ١٩٩٢م: ١٢١)

«الطريقة التي يتماس بها النص مع نصوص أخرى سابقة؛ أو وضع النصوص السابقة بطريقة أخرى في النص؛ أو كيف تطعم النصوص وتتصل بنصوص أخرى.» (محمد شبل، ٢٠٠٩م: ٧٥)

إن النص كدليل لغوى معقد، أو كلغة معزولة شبكة فيها عدة نصوص، فلا نص يوجد خارج النصوص الأخرى أو يمكن أن ينفصل عن كوكبها، وهذه النصوص الأخرى هي ما سمّيته بالنص الغائب غير أن النصوص الأخرى المستعادة في النص تتبع مسار التبدل والتحول. (بنيس، ١٩٩٨م: ٨٥)

«كلّ نص يتعايش بطريقة من الطرق مع نصوص أخرى. وبذا يصبح نصاً في نص، تناص.» (الخطيب، ٢٠٠٥م: ١١٣)

«التناص تشكيل نصّ جديد من نصوص سابقة أو معاصرة، بحيث يغدو النصّ

المتناصّ خلاصة لعدد من النصوص التي تمحى الحدود بينها، وأعيدت صياغتها بشكل جديد، بحيث لم يبق من النصوص السابقة سوى مادتها. غاب الأصل فلا يدركه إلا ذوو الخبرة والمران.» (عزّام، ٢٠٠١م: ٢٩)

أنواع التناص

يحدث التناص في نوعين أساسيين وإن تعددت تسميات، نوع يعود إلى الشكل وهو ما سماه محمد مفتاح بالتناص الخارجى. (مفتاح، ١٩٩٢م: ١٢٤) وسمته عزة محمد شبل بالتناص المباشر. (محمد شبل، ٢٠٠٩م: ٧٩) وسماه حسام أحمد فرج بالتناص الشكلى. (أحمد فرج، ٢٠٠٣م: ١٩٩) وهو اجتزاء قطعة من النص أو النصوص السابقة ووضعها في النص الجديد بعد توطئة لها مناسبة تجعلها تتلاءم مع الموقف الاتصالى الجديد وموضوع النص. وهو الشكل البسيط الذى يتحقق بنقل التعبير. (محمد شبل، ٢٠٠٩م: ٧٩)

ونوع يعود إلى المضمون وهو ما سمي بالتناص الداخلى. (مفتاح، ١٩٩٢م: ١١٤) وبالتناص غير المباشر. (محمد شبل، ٢٠٠٩م: ٧٩) وبالتناص المضمونى. (أحمد فرج، ٢٠٠٣م: ١٩٩) وهو الذى يستنبط من النص استنباطاً ويرجع إلى تناص الأفكار أو المقروء الثقافى أو الذاكرة التاريخية التى تستحضر تناصها بروحها أو بمعناها لا بحرفيتها أو لغتها وتفهم من تلميحات النص وإيماءاته وشفراته وترميزاته. (محمد شبل، ٢٠٠٩م: ٨٠)

مصادر التناص

١. المصادر الضرورية: ويكون فيها التأثير طبيعياً وتلقائياً وهو ما يسمى بالذاكرة أو الموروث العام كتقيد الشاعر غير الواعى بالضرورة بحدود ثقافة توافرت له في إعدادة وتعليمه.

٢. المصادر الداخلية: وتشير إلى التناص الواقع في نتاج الشاعر نفسه وهو الإتيان بجزء من نص سابق له في نص جديد.

٣. المصادر الطوعية: وهى اختيارية وهى ما يطلبه الكاتب من نصوص مترامنة أو

سابقة عليه ويستخدمها الكاتب للدلالة على ذاتها. (محمد شبل، ٢٠٠٩م: ٧٦)
قال محمد المفتاح في أهمية التناص إنه بمثابة الهواء والماء والزمان والمكان للإنسان فلا حياة له بدونهما ولا عيشة له في خارجهما. (مفتاح، ١٩٩٢م: ١٢٥) وقالت عزة شبل محمد إن التناص ضرورة لربط العمل الأدبي بالحياة عبر الاستعانة بالنصوص الأخرى الحية سواء انتمت لعمل أدبي أو أسطوري أو ديني. فالتناص يجعل النص الجديد الذي يستعين به نصاً مألوفاً من ناحية وثرية باستجلاب عوالم أخرى إلى عالمه لتصير عناصره التكوينية في صلة ذات دلالات جديدة. (محمد شبل، ٢٠٠٩م: ٧٧)

التناص في القصيدتين

قبل التطرق إلى التناص في القصيدتين الأفضل أن ندرس هيكل القصيدتين:
يستهلّ الأخطل قصيدته بالنسيب من البيت ١ حتى ١٧. ثم يتخلّص إلى المدح فيمدح الخليفة وقومه من البيت ١٨ حتى ٤٤. وبعد ذلك يبدأ بالفخر، والفخر عند الأخطل ضئيل ٤٥-٥٧. وينهى القصيدة بهجاء القيسيين وأحلافهم وهجاء بني كليب ٥٨-٨٥.

جرير يبدأ قصيدته بالنسيب ١-١٦. ثم يتخلّص إلى الفخر ويمزج بالفخر بالهجاء بحيث لا يمكن تحديدها في أبيات متوالية ١٧-٧٤. كما رأينا تشترك القصيدتان في المطلع وهو النسيب وفي غرضي الفخر والهجاء، وتختلفان من جهة واحدة وهي وجود المدح في قصيدة الأخطل وعدمه في قصيدة جرير.

كما جاء في تعريف النقائض الشاعر الثاني يلتزم البحر والقافية والرّوى الذي اختاره الشاعر الأول. لذا تشترك القصيدتان في البحر العروضي وهو بحر البسيط:

خف فل ق طى / نُ ف را / حومن ك أو / ب ك رو

وأز ع جت / هم ن ون / فى صر ف ها / غ ي رو

مستفعلن / فعلن / مستفعلن / فعلن متفعلن / فاعلن / مستفعلن / فعلن

قل لد د يا / ر س قى / أط ل ل كل / م ط رو

قد هج ت شو / قن وما / ذا تن ف عل / ذ ك رو

مستفعلن / فعلن / مستفعلن / فعلن مستفعلن / فاعلن / مستفعلن / فعلن
وتشترك القصيدتان في القافية وحرف الروى وهو حرف الراء المضمومة في كليهما.
١. التناس المضمونى بين القصيدتين:

فى النسب: لقد تضمنت قصيدة جرير معانى متعددة من قصيدة الأخطل فى النسب
وسببه يعود إلى اختلاف الموقف الإبداعى بين الشاعرين، فالشاعر الأول له حرية
اختيار الموضوع والوزن والقافية والمعانى. أما الشاعر الثانى فهو مقيد بالموضوع الذى
فرض عليه ومقيد بمحدود الوزن والقافية المستعملين عند الشاعر الأول. وإنما الشاعر
الأول له ما شاء من الوقت، أما الشاعر الثانى عليه أن يردّ على الأول قبل فوات
الوقت.

وقد قال جرير فى رحلة الأحبة:

نادى المنادى بين الحى فابتكروا منّا بکروا فما ارتابوا وما انتظروا

وهذا المعنى يتناس مع معنى البيت التالى من قصيدة الأخطل فى رحلة الأحبة:

خفّ القطين فراحوا منك أو بکروا وأزعجتهم نوى فى صرفها غير

ونرى اختلافا بين الشاعرين فى ذكر الرحيل وهو أنّ جريرا قد تنبّه على وقت
الرحيل، واستخدم الجملة خبرية وقال: «بکروا فما ارتابوا» ولكن الأخطل كان
متسائلا عن زمن الرحيل، واستخدم الجملة إنشائية قائلا: «فراحوا منك أو بکروا».

وقد قال جرير فى حزنه إثر نزوح الحى:

قالوا لعلک محزون فقلت لهم خلوا الملامة لا شکوى ولا عذر

كما وصف الأخطل حزنه إثر نزوح الحى فى البيت:

فالعین عانية بالماء تسفحه من نية فى تلاقى أهلها ضرر

ويبدو أنّ جريرا لم يظهر حزنه أمام أصدقائه بعد الرحيل وهم كانوا مترددين فى
حزنه. ويدلّ على هذا استخدام كلمة "لعلّ" فى قوله «قالوا لعلک محزون». لكن الأخطل
ما استطاع إخفاء حزنه بعد الرحيل وأظهره بالبكاء، حيث يقول: «فالعین عانية بالماء

تسفحه».

وفي متابعة الطعائن قال جرير:

إنّ الفؤاد مع الظعن التي بكرت
من ذى طلوح وحالت دونها الظهر
وقال الأخطل في متابعته الطعائن:

شوقا إليهم ووجدا يوم أتبعهم
طرفي ومنهم بجنبى كوكب زمر

نرى أن جريرا بعد رحلة الطعائن وقف في مكانه ونظر إليهن من بعيد وما تابعهن بعد أن اختفن خلف الكتيان وأما هذا الوقوف وعدم المتابعة فليس بمنزلة نسيانه إياهن، وكما قال فؤاده مع الطعائن حتى بعد أن ابتعدن عنه بحيث لا يستطيع أن يراهن. ولكن الأخطل من جرّاء الشوق الذى يعانیه لظعائن الأحبة لم يستطع أن يقف في مكانه و قد اقتفى أثرهم بنظره.

وقال جرير في زمن النزوح وصعوباته:

أبصرن أن ظهور الأرض هائجة
وقلص الرطب إلا أن يرى السرر
في هذا البيت أتى التناص مع بيت الأخطل التالى:

شرقن إذا عصر العيدان بارحها
وأبيست غير مجرى السنة الخضر

يرى المتتبع لهذه القصيدة أن جريرا قال إن الأحبة رحلوا في زمن يبست الأرض وأصيبت بالمحل والمجدب، كما قال الأخطل إن الأحبة رحلن واتجهن شرقا في زمن تحفّفت الريح الباردة الأرض والكلأ ولم يبق نبات واضمحل الخضر إلا في مجرى السكة. وفي وصف قافلة الأحبة قال جرير:

إن الخليط أجدّ البين يوم غدوا
من دارة الجأب إذ أحداجهم زمر

وفي هذا البيت تناص مع قول الأخطل في وصف قافلة الأحبة:

شوقا إليهم ووجدا يوم أتبعهم
طرفي ومنهم بجنبى كوكب زمر

وكلا الشاعرين قدوصفا الأحبة بجماعات حين نزوحهم، وقدقال جرير إنهم جماعات

يوم ابتكروا وأسرعوا في الزيال، كما قال الأخطل إنهم جماعات عندما يجتازون موضع كوكب. في هذا البيت استخدم جرير نفس القافية التي استخدمها الأخطل. في الفخر والهجاء: نرى أن جريرا قد ضمّن في فخره وهجائه معاني متعددة استخدمها الأخطل في شعره من قبل. إذ هجا جرير نسوان تغلب بالقول:

نسوان تغلب لا حلم ولا حسب ولا جمال ولا دين ولا خفر
ويستمر التناص في هذا البيت مع بيت الأخطل:

قوم أنابت إليهم كل مخزبة وكل فاحشة سبت بها مضر

نرى السمة الإسلامية في شعر جرير في قوله "لا دين"، حيث عير جرير نساء تغلب بنصرانيتها. وبين أسلوب الشعارين في هجو النساء اختلاف، وهو أن الأخطل نسب إلى نساء كليب الرذائل ولكن جرير نفى عن نساء تغلب الفضائل. نسب جرير اللؤم إلى التغلبيين حيث يقول:

يا خزر تغلب إن اللؤم حالفكم مادام في ماردين الزيت يعتصر
يتناص هذا البيت مع قول الأخطل في لثامة كليب:

واقسم المجد حقاً لا يحالفهم حتى يحالف بطن الراحة الشعر

وشبه جرير اللؤم بإنسان ثم حذف المشبه به وأتى بفعل من أفعاله وهو فعل "حالف" على سبيل الاستعارة المكنية، كما قبله شبه الأخطل المجد بإنسان، ثم حذف المشبه به، وأبقى فعلاً من أفعاله يدلّ عليه وهو فعل "حالف"، لكن بينهما اختلاف وهو أن جملة جرير إيجابية وأما الأخطل فجملته منفية. ونرى أن جريرا في شطره الثاني تابع أسلوب الأخطل في شطره الثاني وهو الاتيان بمعنى حسى يفيد استمرار المعنى في الشطر الأول. وصف جرير التغلبيين بقلّة الشأن والمقام، حيث يقول:

والتغلبى إذا تمت مروءته عبد يسوق ركاب القوم مؤتجر

وفي هذا البيت التناص مع بيت الأخطل:

صفر اللحي من وقود الأدخنة إذا ردّ الرفاد وكفّ الحالب القرر
ونرى أن جريراً نفى عن الأخطل علو المقام ونسب إليه الدناءة والذلة بالقول إنه
عبد مأجور يستخدم لأداء أمور آخرين، كما قبله وصف الأخطل التغلبيين بقلة الشأن
والمقام بالقول إنهم رقيق قد اصفرت لحاهم لكثرة ما يستخدمون ليوقدوا النار أيام
الصقيع.

افتخر جرير بقبيلة قيس:

قيس وخندف أهل المجد قبلكم لستم إليهم ولا أنتم لهم خطر
وأقى التناص عند الشاعر بالتأثر من قول الأخطل:

وما سعى فيهم ساع ليدركنا إلا تقاصر عنا وهو منبهر
وقال الأخطل إن بونا شاسعا بين مقام تغلب ومقام قيس بحيث إنهم لا يستطيعون أن
يصلوا إلى مقام تغلب ولا يلحقون بهم حتى تتقطع أنفاسهم، ثم جاء جرير وقابل الأخطل
في هجائه بالقول إن القيسيين هم أهل المجد وهم فضل على التغلبيين وهم لا يعدون شيئا.
وقال جرير في الدفاع عن قيس:

يا ابن الخبيثة من عدلت بنا أم من جعلت إلى قيس إذا زخروا
وفي هذا البيت حدث التناص مع بيت الأخطل:

ضجوا من الحرب إذ عَضَّتْ غواربهم وقيس عيلان من أخلاقها الضجر
ونسب الأخطل في هذا البيت إلى التغلبيين الجبن عن القتال وقال إنهم لا يطيقون
القتال عندما يخدم وويشدد عليهم، وإنهم يتضجرون أمام المشقات والصعوبات ثم جاء
جرير مدافعا عن قيس، وقال من يستطيع أن يقابل القيسيين ويواجههم عندما جاشوا
في الحرب. والاستفهام في بيت جرير يفيد التوبيخ.

وهذا النوع من التضمين في النقائض يسمّى المقابلة أو المؤازاة وهي أن يضع الشاعر
الثاني من المعاني الفخرية أو الهجائية ما يناظر ويقابل معاني الشاعر الأول. (الشايب،

(١٣٧١ق: ٣٥)

ويتحدث جرير عن حقارة منزل تغلب ومقامهم قائلاً:

إني نفيتك عن نجد، فما لكم نجد وما لك من غور به حجر
إذ حدث التناص مع بيت الأخطل:
كروا إلى حرّتهم يعمرونها كما تكرّ إلى أوطانها البقر

ويعرّض الأخطل في هذا البيت بمقام القيسيين مشيراً إلى أن هؤلاء بعد أن انهزموا في احتلال مواقع تغلب رجعوا إلى أرضهم القاحلة التي تكثرت فيها الحجارة السود. وشبّههم في رجوعهم إلى ديارهم بالبقر، ثم امتص جرير المعنى وقال إنه طرد الأخطل وقومه عن المواقع الخصبية إلى المواقع الوعرة والجذباء وهم لا يملكون شيئاً عن تلك المواقع. وقال جرير في قدرتهم وصلابتهم:

إنّا وأمك ما تُرجى ظلامتنا عند الحفاظ وما في عظمنا خور
ويستحضر هذا البيت في الذهن البيت التالي للأخطل:

لايستقلّ ذوو الأضغان حربهم ولايبين في عيدانهم خور
والأخطل هنا استخدم هذا البيت في مدح بني أمية وقال لا يوجد فيهم ضعف وفتور، وبعده جاء جرير وأخذ المعنى واستخدمه في الفخر بأنفسهم، وقال لا يعترى صلابتهم وهنّ. ونرى أن جريراً استخدم نفس القافية التي استخدمها الأخطل.

٢. التناص الشكلي:

إن من يقرأ قصيدة جرير يظهر له بوضوح استخدامه أبيات الأخطل وجمله وكلماته. ونحن في هذا القسم من هذه الدراسة نريد أن نوضح هذا القسم الذي اعتبره النقاد التناص الشكلي.

أ. التناص الجملي: أتى جرير بعدة جمل من قصيدة الأخطل في قصيدته، منها:

قال جرير:

قالوا نرى الآل يزهى الدوم أو ظعنأً
يا بعد منظرهم ذاك الذى نظروا

حيث يتناص الشطر الثانى مع الشطر الثانى من البيت التالى للأخطل:

إذ ينظرون وهم يجنون حنظلمهم
إلى الزواجى بعد ما نظروا

ونرى أن جريراً وظف الشطر الثانى الذى اقتبسه من الأخطل توظيفاً جديداً ومخالفاً لتوظيفه عند الأخطل، ولكن جريراً استخدمه فى نسيبه حيث يصف نروح أحبته، أمّا الأخطل فاستخدمه فى الهجاء ويقول بعد أن أهلك الحرب بنى كليب وذاقوا مرارتها جعلوا ينظرون إلى مقامنا ويطمعون فيه ثم يسخرهم مطعمهم قائلاً: ما أبعد ما أمّلوا وطمعوا فيه.

وقال جرير فى موضع آخر:

لولا فوارس يربوع بذى نجب
ضاق الطريق وأعياء الورد والصدر

إذ اقتبس جرير المصراع الثانى من بيت الأخطل التالى:

ولم يزل بسليم أمر جاهلها
حتى تعايا بها الإيراد والصدر

ونرى فى هذين البيتين أيضاً اختلافاً فى توظيف الشطر الثانى وذلك لأن الشاعر جريراً استخدم الشطر المقتبس فى الفخر ويقول إن قومه هم الذين يدبرون الأمور ويعلمون الناس سبيل الإقبال والإدبار. لكن الأخطل هجا به القيسيين بتعبيره أن عمير بن الحباب هو الذى يقود سليماً بجهله وأعجزها تدبير الأمور حتى لاتعلم سبيل الإقبال والإدبار.

وهذا النوع من الاقتباس فى النقائض يسمّى بتوجيه المعنى وهو أن الشاعر الثانى يقتبس معانى الشاعر الأول ويفسرها ويوجهها إلى وجهة يراها لصالحه وتؤيد موقفه.

(الشايب، ١٣٧١ق: ٣٥)

قال جرير:

إن الأخيطل خنزير أطاف به
إحدى الدواهى التى تخشى وتنتظر

وأخذ جرير المصراع الثانى برمته من الأخطل حيث يقول:

وقد أصابت كلاباً من عداوتنا إحدى الدواهي التي تخشى وتنتظر
 وكون الأخطل نصرانياً يعطى جريراً مجالاً لتعير الأخطل بدينه وهو يغتنم الفرصة
 ويعير الأخطل بنصرانته في أبيات كثيرة في نقائضه مع الأخطل. وبما أن النصرانيين
 يستبيحون أكل لحم الخنزير، شبه جرير الأخطل في هذا البيت بخنزير، واستعان في
 وصف ذاك الخنزير بشعر الأخطل بالإتيان بشرط كامل من شعره.
 والأخطل في البيت المذكور مزج هجاءه بالفخر بالقول إن قومه هم الذين أوقعوا
 كلاباً قوم جرير في مصيبة عظيمة يخافها الناس ويتحسبون لوقوعها. فهجاء الأخطل في
 هذا البيت هجاء قومي أى هجا قوم جرير، أمّا هجاء جرير فشخصى أى هجا الأخطل
 نفسه دون قومه.

وتجدر الإشارة إلى أن هجاء الأخطل في هذه القصيدة كله هجاء القوم لأنه نظم
 هذه القصيدة في عبد الملك بن مروان، فهذه القصيدة قصيدة مدحية. كما جاء في الكتب
 التاريخية أن الأخطل لقب بشاعر بنى أمية. (الفاخوري، ١٤٢٧ق: ٤٦٦) وهذا اللقب
 بسبب مدحه الخلفاء الأمويين والدفاع عنهم أمام أعدائهم وهجوهم. وهو في هذه
 القصيدة يهجو القيسيين والكليبيين - وهم من حلفاء الزبيريين - بسبب الصراع
 السياسى الذى كان قائماً بين الحزبين الأموى والزبيرى، فهجاؤه سياسى وحزبى وليس
 شخصياً. أمّا هجاء جرير فشخصى وقومى لأن مقامه يختلف عن مقام الأخطل وإنما هو
 في مقام الرد.

قال جرير:

الآكلون خبيث الزاد وحدهم والنازلون إذا وارا هم الخمر

وقال أيضاً:

الظاعنون على العمياء إن ظعنوا والسائلون بظهر الغيب ما الخبر

وهذا جرير أخذ الشطر الأول من البيت الأول والشطر الثانى من البيت الثانى من
 البيت التالى للأخطل:

الآكلون خبيث الزاد وحدهم والسائلون بظهر الغيب ما الخبر

وهذا النوع من التضمين في النقائص يسمّى بالقلب وهو أن «يقول الشاعر الأول هاجياً فيردّ عليه الثاني قلباً عليه معانيه ذاتها مدّعياً أنّها من صفات الأول أو رهطه.» (الشايب، ١٣٧١ق: ٣٥)

ب. التناصر مع كلمة واحدة: تراحم في قصيدة جرير حشد كبير من المفردات التي استخدمها الأخطل في قصيدته، وهذا الاستخدام بعض الأحيان صدفة وغير مقصود ولكن في كثير من الأحيان واع ومقصود وليس اعتباطياً أو صدفة. وهنا نذكر على سبيل المثال عدّة كلمات استخدمها جرير في شعره ونجدها في شعر الأخطل أيضاً، لكن استخدامها صدفة وليس متعمداً، وهي: الشوق، والمناكب، والأرض، والناس و... .
ينشد جرير:

قل للديار سقى أطلالك المطر
قد هجت شوقاً وما تنفع الذكر
وينشد الأخطل:

شوقاً إليهم ووجداً يوم أتبعهم
طرفي ومنهم بجني كوكب زمر
كما ينشد جرير في موضع آخر:

بزل كأن الكحيل الصرف ضرجها
حيث المناكب يلقي رجعها القصر
والأخطل كان قد أنشد:

حسّوا المطى فولّتنا المناكب
وفي الخدور إذا باغمتها صور
وهذا جرير يقول:

أحياؤهم شر أحياء وأأمه
والأرض تلفظ موتاهم إذا قبروا
ولكن الأخطل قال:

حتى هبطن من الوادي لغضبتة
أرضاً تحلّ بها شيبان أو غير
ثم قال جرير في مقام آخر:

نرضى عن الله أن الناس قد علموا
بينما الأخطل كان قد قال:
أن لا يفاخرنا من خلقه بشر

شمس العداوة حتى يستقاد لهم
وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا
وأما الكلمات التي تضمنتها قصيدة جرير وأيضا توجد عند الأخطل وتضمنها
واع وعن عمد، فهي: المطر، والظفر، ويسروا، وكدر، ونصروا، وعمياء، وبئس، والسكر،
ومضر، السوءات، وكفروا، وأثر، وبشر.
جرير:

إن الهذيل بذى بهدى تداركه
ليث إذا شدّ من نجداته الظفر
الأخطل:

إلى امرئ لاتعدينا نوافله
أظفره الله فليهنئ له الظفر
جرير:

والمقرعين على الخنزير ميسرهم
بئس الجزور وبئس القوم إذا يسروا
الأخطل:

ولم يزل بك واشيهم ومكرهم
حتى أشاطوا بغيب لحم من يسروا
جرير:

نحن اجتبينا حياض المجد مترعة
من حومة لم يحالط صفوها كدر
الأخطل:

بنى أمية نعماكم مجللة
تمت فلا فيها منة ولا كدر
جرير:

أعطوا الحزيمة والأنصار حكمهم
والله عزز بالأنصار من نصروا
الأخطل:

بنى أمية ناضلت دونكم

أبناء قومهم آووا وهم نصروا

جرير:

الظاعنون على العمياء إن ظعنوا

والسائلون بظهر الغيب ما الخبر

الأخطل:

مخلفون ويقضى الناس أمرهم

وهم بغيب في عمياء ما شعروا

جرير:

والمقرعين على الخنزير ميسرهم

بئس الجزور وبئس القوم إذا يسروا

وأيضاً جرير:

من كل مخضرة الأنياب قعرها

لحم الخنانيص يغلى فوقه السكر

الأخطل:

بئس الصحة وبئس الشرب شربهم

إذا جرى فيهم المزاء والسكر

جرير:

موتوا من الغيظ في جزيرتكم

لم يقطعوا بطن واد دونه مضر

الأخطل:

قوم أنابت إليهم كل مخزية

وكل فاحشة سبت بها مضر

جرير:

هلا سكتكم فيخفى بعض سوءاتكم

إذ لا يغير في قتلاكم غير

الأخطل:

على العيارات هداجون قد بلغت

نجران أو حدثت سوءاتهم هجر

جرير:

فأحمد الله حمداً لا شريك له إذ لا يعادلنا من خلقه بشر
الأخطل:

ولا الضباب إذا اخضرت عيونهم ولا عصية إلا أنهم بشر
جرير:

جاء الرسول بدين الحق فانتكثوا وهل يضير رسول الله أن كفروا
الأخطل:

وقيس عيلان أقبلوا رقصاً فبايعوك جهاراً بعدما كفروا
جرير:

كانت وقائع قلنا لن ترى أبداً من تغلب بعدها عين ولا أثر
الأخطل:

يعرفونك رأس ابن الحباب وقد أضحى ولل سيف في خيشومه أثر

أخذ جرير كما رأينا كثيراً من الكلمات المستعملة في القافية من قصيدة الأخطل واستعملها في نفس الموضع. وفي بعض الكلمات اختلاف في التوظيف عند الشعراء، فمثلاً استخدم الأخطل كلمة "الظفر" في قافية البيت الذي مدح به الخليفة الأموية ولكن جريراً استخدمها في البيت الذي افتخر فيه بفوارسهم، أو كلمة "بشر" استعملها الأخطل في الهجاء ولكن جريراً استعمل نفس الكلمة في الفخر. وفي بعض الآخر لا يوجد اختلاف في التوظيف، ككلمة "السكر" إذ وظفها كلا الشعراء في الهجاء.

النتيجة

كانت تقنية التناص الأدبي واضحة في قصيدة جرير كما لاحظنا حيث نرى في بعض الأحيان أن القارئ حينما يقرأ بيتاً أو عبارة من قصيدة جرير يتبادر في ذهنه على الفور قصيدة الأخطل، وسبب هذا الوضوح وهذا الخطور السريع يعود إلى:

- تضمين جرير المعاني المتعددة في أغراضه الشعرية، التي أخذها عن الأخطل.
- استحضار الأشطر العديدة والعبارات المتعددة في قصيدته من قصيدة الأخطل.
- واستحضار بعضها دون النقصان أو الزيادة وبعض الآخر مع النقصان أو الزيادة.
- استخدام حشد كبير من كلمات قصيدة الأخطل مع التغيير في توظيف بعضها وعدم التغيير في بعض الآخر.
- والتناص في قصيدة جرير كان واعيا ومقصودا إلا في بعض الأحيان.

المصادر والمراجع

- أبوتمام. ٢٠٠٢م. نقاوض جرير والأخطل. شرح وتحقيق: محمد نبيل طريفى. بيروت: دار صادر.
- أحمد فرج، حسام. ٢٠٠٣م. نظرية علم النص رؤى منهجية في بناء النص النثرى. تقديم: سليمان عطار ومحمود فهمى حجازى. القاهرة: مكتبة الآداب.
- بينس، محمد. ١٩٩٨م. حدائث السؤال. الطبعة الثانية. بيروت: المركز الثقافى العربى.
- الخطيب، رحاب. ٢٠٠٥م. معراج الشاعر مقارنة أسلوبية لشعر طاهر رياض. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- الشايب، أحمد. ١٣٧١ق. تاريخ النقائض العربية. الطبعة الثانية. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
- عزّام، محمد. ٢٠٠١م. النص الغائب تجليات التناص في الشعر العربى. دمشق: اتحاد الكتاب العرب.
- الفاخورى، حنا. ١٤٢٧ق. تاريخ الأدب العربى. قم: منشورات ذوى القربى.
- محمد شبل، عزّة. ٢٠٠٩م. علم لغة النص النظرية والتطبيق. القاهرة: مكتبة الآداب.
- مفتاح، محمد. ١٩٩٢م. تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص). الطبعة الثالثة. بيروت: المركز الثقافى العربى.
- المناصرة، عزّ الدين. ٢٠٠٦م. علم التناص المقارن نحو منهج عنكبوتى تفاعلى. الأردن: دار مجد لاوى للنشر والطباعة.